مبارك ربيع

باط الخروب

لا تستطيع أن تجزم إذا كان الأصل «بطن الخروب» أو «ابط الخروب». لا تستطيع أن تعرف على وجه التحديد علاقة هذا الإبط أو البطن بالخروب. تستطيع أن تسرح في خيالات وعوالم تقارن الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل. تستطيع أن تصل إلى صورة مساعدة على الفهم.. لا تستطيع أن تقتنع أو تتأكد. تستطيع أن تخلق إمكانات.. تتخيل وقائع، أما الحقيقة... الحقيقة... فتظل مُتَمَنِّعة. تستطيع أن تجد متعة لذيذة معذبة في تصيّد خيوطها، خيطاً خيطاً، رفيعاً رفيعاً؛ إذا كنت بوعلي، وفي جوف الليل، وحيداً إلى ظلامك الحالك، إلى انتظارك وتوجسك، وحيداً إلى بندقية وعزم جاهز للإطلاق!

يستحضر بوعلي أسماء ومسميات عديدة لبقاع أخرى ما أكثرها: بلدة الكصعة، هل سميت كذلك لاستوائها، أم لأن كائناً مَا، رجلاً أو امرأة، مرّ بها أو سقط يحمل قصعة؟ وبلدة الرويس ومزكلة وعيناس...؟ متعة لذيذة معذبة. شبق طفلي يطارد في الحلم فراشة ما تكاد تحط إلا لتطير، ولا تستقيم إلا لتنحرف أو تقترب إلا لتبتعد. بوعلي والحاضر المهووس، وفضاءات باط الخروب يتقراها في الظلام بَشطة وانحداراً، صخرة صخرة، دومة دومة، تربة وعشباً، دون أن يتحرك من مكمنه أو يبصر في الظلام أو يشير.. يتحسسها تعاريج والتواءات دون أن يتعثر به خاطر أو قدم...

يطول الليل، يطول النهار.

غيبة الحبيب كيّه بالنار.

ما را ما شاف.

لعبة مسلية في قسوة انتظار طويل صامت، مقاطع أغنية تتردد بين الحلق والصدر، تموت دون اللسان والشفتين، يتردد صداها في الجوف. رغبة ملحة في إشعال سيجارة يجاهد بوعلي في مقاومتها. معركة ضارية فعلاً يخوضها الرجل ضد الرغبة العارمة في التدخين، تترجم إلى أكلان في الشفتين والجنبين والصدر والأنامل...

يتحرك بوعلي في مكمنه، يغير من وضعه قليلاً إلى وضع أكثر راحة. يطرح البندقية جانباً، يحكّ يداً بيد عدة مرات. يتمطّى. يحك جنبيه، يصادف موقع علبة السجاير في جيب الصدر، يغتال رغبته الملحة في التدخين، ويعود إلى احتضان بندقيته بيديه. يطول الليل، يطول النهار... أنت لا تنتظر حبيباً أو عشيقاً، بل ذئبة ماكرة! أقل حركة أو صوت تهدم كل شيء، وتعود بك إلى سهر ليالٍ أخرى دون جدوى؟ أما أن تشعل وقيدة، وتولع سيجارة مهما بالغت في التخفي، فالذئاب تتصيد ريح النار والدخان من بعيد بِحِذْق لا يتصور. وعجيب أن تسكن الذئاب باطّ الخروب... عجيب لأنه خطير، يمسّ مسًّا غير رقيق ولا هيّن.. وعجب لأن باط الخروب مغر بطبيعته للذئاب والثعالب؛ تنوعاته، سهوبه ووديانه... وأعجب من ذلك كله أن تحل به ذئبة.. أنثى. في البدء كانت كالإشاعة.. شهادات باهتة بأن أشخاصاً تراءى لهم شبح ما. لأمر ما تمتنع الذئاب عن العواء عندما تحل بمكان في الأيام الأولى... لا تبدأ ذلك قبل اليوم السابع؟ وظل بوعلي يكذب الإشاعات لأنه يتمنى ألا تصدق. ولأنه كان يتمنى ذلك، لم يتابع حساب الأيام في انتظار سابعها، مؤكداً لنفسه أنه لا يعرف منذ متى يعد لتناقض الإشاعات... مهما يكن فنزول الذئب بوادٍ لا يمكن أن يمر دون عواء ولو بعد اليوم العشرين... ومن يدري، قد تكون

الاشاعات صحيحة إلا أن الشبح الرهيب، لم يكن إلا ماراً عابراً نحو منطقة أخرى.. الغابات مثلاً؟ تلك الغابات التي تظل دائماً مصدراً لكل شر.

ثم كان.. كما لا بد أن يكون. وقفز مذعوراً من فراشه مفتح العينين دفعة واحدة، يتابع العواء الحاد، يشق جوف الليل، يضرب جوف السمع على خيوط القمر المتسلل. واستمر ذلك العواء يتردد كل ليلة في مواعده المحددة تقريباً، ينأى ويقترب، يضعف ويشتد مع اتجاه الريح، ولكنه هنا... معي... حولي... في فسحة باط الخروب.

ذئبة كانت أنثى بالتأكيد! ويا للمفاجأة عندما تحدث! بوعلي يضرب في مرتفعات باط الخروب ومنخفضاته. جولة روتينية تنجزها قدماه في أي لحظة من يومه دون أن يضع لها خطة أو حساباً. ومع ذلك، كانت هي اللحظة بالذات والجولة بالذات، التي كان فيها خالي الذهن في مواجهة خصمه، لشدة ما كان يفكر ويستعدّ لهذه المواجهة. هكذا؟ فجأة وبلا مقدمات من قبله على الأقل. العجيب أنها كانت ذئبة... أنثى. طلعت له أو طلع لها... المهم... التقيا مباشرة وجهاً لوجه تقريباً، حتى لكادا أن يتعانقا! تخطو بثبات يميزها هياج لا يخطئه بوعلي في إناث الذئاب... الضرع ضامر يبدو بوضوح... مرفوع يتشمم الهواء، والفكان منفرجان.. شراسة وخبث وكبرياء... كل التفاصيل التي سمحت بها اللقطة المفاجئة التي مرت بطيئة عابرة. وقبل أن يفيق بوعلي من ذهول المفاجأة، كانت قد مضت لسبيلها، غارت في المنحدر دون أن تغيّر من اتجاهها أو سرعتها... ذئبة... أنثى... لا بد لعوائها وريحها أن يجذب الذكور، ولن يطول الأمر حتى يرتع قطيع منها في باط الخروب... وتوضع جراء...

ويطول الليل ويطول النهار.

غيابك يا حبيب كيّه ونار.

ما رَا ما شاف.

يعود بوعلي من جلسته في مكمنه، يحتضن بندقيته. على بعد خطوات منه شاة مربوطة في حبل طويل إلى وتد تمثل طعماً شهياً. يريدها معركة واحدة حاسمة مهيأة ومدروسة. حكايات الذئاب مع الفخوخ محفوظة عن ظهر قلب. لذلك استبعد فكرة «المنداف». لا يريد مغازلة عدوه، وليس هو في صيد للنزهة، فيهمّه أن يظفر بالذئب حياً أو معطوباً أو... لا يهمه الدم ولا الفرو.. ويحدث غالباً عندما ينطبق فكّا المنداف على إحدى قوائم الذئب، أن تتبقى في موقع المعركة الرهيبة بين الفولاذ وشراسة الكائن الحي آثار من القدم... منتصف الساق أحياناً وينفلت الذئب في النهاية أسرع وهو على ثلاث منه على أربع، لا أَوْهَى من عظم الساق في هيكل ذئب شرس، مع ثقل ما تحمل من هيكل، وخفة ما تسرع به.

يدب الأَكَلانُ في شفتي بوعلي، ويقمع من جديد رغبته في التدخين. يمد يده في الظلام يتحسس الأرض، ويرمي بحجر صغير صوب مربط الشاة التي يحس بها بقعة وحيدة بيضاء في الظلام. لا تستجيب بثغاء مغر. يعاود الكرة فلا يصدر عنها إلا تمرد صوتي مبحوح. لا يهتم بوعلي لذلك، فالذئاب تشم ريح الضحية من بعيد، وتبصره من وراء ألف حجاب.

يلح مقطع الأغنية، يلح الأكلان... تلح الخواطر... تصور ذئبته كامنة بين الصخور... تصورها تتسلل بخطر اللص الحاذق، فتقفز على رقبة الشاة في الظلام، قفزة تكون في نفس الوقت نجاتها من رصاصته الوحيدة! كأنما بالإمكان أن يقتلها بطلقته الوحيدة؟! كل شيء ممكن. تصورها بخبثها وحذقها المعروف، تخلف الموعد كما أخلفت لليال خلت؟ فينتظر حتى ينزع نور الصبح، ليقود شاته وخيبته نحو قطيعه. لِمَ بالذات باط الخروب؟ ولِمَ هو بالذات؟ ولِمَ الآن عندما أصبح له من الأغنام قطيع حقيقي يحسد عليه؟

تصورها الآن ترتع في القطيع وقد انفرط عقده، بفعل الرعب، تقفز من رقبة هذه إلى تلك، ومن ذاك إلى هذه، والجثث الصوفية تتساقط هنا وهناك، لا يوقف المعركة إلا تدخل نصير فعال... اقشعر كيان بوعلي لمشهد الحملان المضرجة بالدماء. لِمَ يخبط الذئب في كل القطيع خبط مسعور ولا يتوقف عند شاة واحدة يفرسها بأناة...؟ وتعبر الخاطر شهادات اليفاعة والصبا عن معارك عدة خاضها بوعلي بخاطر الصبي مع الرجال ضد الذئاب والثعالب. لم يكن الرصاص إذ ذاك بوفرة اليوم. كانت المعارك بالهراوات والشباك... والمطاردة الجماعية. تبدأ المحاصرة بمحيط دائرة فسيح، وتتجه نحو المركز حيث تتجمع الطرائد من كل جنس، ويضيق بها الخناق... فتعمل الهراوات والشباك فعلها، ولا يفلت من الحَمْلة إلا ما أريد له أن يفلت. لِمَ بالذات باط الخروب، ولِمَ هو بالذات؟ لو لم تنغل القلوب بدائها لكان الكثير معه، وإلى جانبه في سهرة النار هذه، لكانت الذئبة في خبر كان منذ عوائها

الأول. أولاد بلعسري من هنا ثلاثة رجال... والرحاحلة من هناك خمسة... والجويدي... وولد العامرية... لو لم تنغل القلوب بدائها لكانت معركة نزهة وفرجة تقام في ختامها وليمة الأحبة على المشوي والمحمر ونشوة الشاي! والأحبة في مرح يتناصحونْ بفوائد دم الذئاب في إبطال السحر... وإذكاء (الهمة) في الرجال... بينما تقبع الذئبة مسكينة مربوطة إلى وتد ككلبة أليفة تنتظر مصيرها آه... لو لم تنغل القلوب...

ويقفز بوعلي من خواطره مذعوراً. بنت الكلب مرقت قرب مكمنه كالسهم وكشطت عليه التراب. نفض أطراف جلابته ولحيته في غيظ. لا شك أنها عرفت مكمنه أو رأته. والشاة بقعة وحيدة بيضاء في الظلام ألم ترها؟ كيف؟ تلعب به وتضحك عليه أم تناور قبل أن تهجم؟ لا بد أن تعود. يجب أن تعود. احتضن رصاصته الوحيدة وأصبعه على الزناد.

يطول الليل، يطول...

تجاهل إلحاح الأغنية الغامض في هذه اللحظة بالذات. أسند ظهره أقصى ما يمكن على الجوار الترابي لمكمنه، وسدد نحو الشاة التي بدأت رقعتها البيضاء تتحرك في الظلام، متبرمة بوضعها، قلقة، محرجة... مرتعبة... متوحشة... مت... وأطلق... وقفز بيد على سكينه الطويل تملأ خياشيمه رائحة الغبار والبارود. هل تسرع؟ جذب إليه حبل الشاة حتى استردها، تحسسها. سليمة. مرتعشة أشد ارتعاش. هل أفلت الذئبة؟ أطلق بالذات عندما غشيت الدكنة بياض الشاة، ويجب أن تكون تلك هي اللحظة المناسبة لا بعدها. أبداً. لم يكن حسه ليخطئ ولا بصره. فهل يخطئ التصويب؟ ترك الشاة لحبلها الطويل، وتحرك يجوس في الظلام بحثاً عن ضحيته. لا يمكن أن تنأى كثيراً أو تتحمل طويلاً؟ أحس برصاصته تصيبها في الكتف أو في المرود، إن لم تكن في مقتل محقق. لن تنأى أو تتحمل طويلاً. ظل يجوس... يجوس... ثم تبينها مكومة أمامه في الظلام. جثة هامدة أو كالهامدة. توقف. أعدّ سكينه احتياطاً للاجهاز... وظل يرقبها. هامدة. اقترب منها وتوقف على بعد خطوتين... هامدة، إلا ما يمكن من تردد نفس خافت في درجة الموت. انبعثت رغبته في التدخين قوية لا تقاوم يغذيها إحساس غامر بالنشوة. مازال يجيد التسديد. ومازال يحدد المقاتل في الظلام، ولا تزال طلقته الأولى والوحيدة هي إيّاها، كالعهد بها. سحب نفساً عميقاً عميقاً من سيجارته. وغالبه مقطع الأغنية الغريب المستعصي. ولأول مرة أطلق سراح لسانه به:

يطول اللّيلْ ويْطولْ النهارْ
حبك يا حُليلْ كيّه وناز
ما شافْ ما رَا
قلبي من قلبكْ
حبي من حبّكْ
غير الفرقة واللّي جْرَى وما جْرَى
واللي جْرى يا حبيبي
كْتيرْ
وأنا حبّي لِك
كْبيرْ وكبيرْ
واللّي ما جْرَى
في القلبْ حسرَة

* * *

كأنه يحفظ الأغنية العنيدة واللحن المتردد، لكنه لم يكن ليتمها فمن جوف الليل، من عمق بطن الخروب ومن أقصاه إلى أقصاه تجاوب العواء...